انقضى الآن ثلاثون عاما على وفاة محرر المرأة المصرية قاسم أمين · وقد لاقت دعوته من النجاح بعد وفاته ، قدر ما لاقت مـــن الاستنكار فى أثناء حياته · ولكن ما نجم عنها من نتائج يحملنا على أن نتســاءل :

هـــل أخطأ قاســم أمين

فى دعوته الى تحرير المرأة ؟ (*)

بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى

قال العلامة الكبير (اجوست كومت) مؤسس علم الاجتماع والفلسفة الوضعية فى كتابه (النظام السياسى) :

« كل أدوار الانتقالات الاجتماعية قد ولدت كما فى زماننا هـــذا ضلالات خيالية على حالة النساء الاجتماعية ، ولـكن القانون الطبيعى الذى يخصص الجنس النسوى للحياة البيتية لم يتغير ابدا تغيرا خطرا »

وهذه الضلالات فى نظر واضع علم الاجتماع هى ما كان يكتبه بعض الكتاب فى أوربا تحت عنوان : (تحرير المرأة) ·

التسمية فى نفسها تؤثر فى كل نفس كريمة ، فمن الذى لا يود أن تحرر اخواته فى الانسانية من الأسر وقد حررت الاماء السود فى جميع بقاع الأرض ، ويغفل الأكثرون عن أن هـــذه التسمية مبنية على اخطاء علمية ، سوغت لعمدة الفلسفة الوضعية أن يسميها ضلالات خيالية · فلم تنص شريعة فى الأرض مهما انحطت على أن النســاء أسيرات فى أيدى الرجال ، ولا أنهن مجردات من جميع الحقوق ، ولكن الأمر الواقع هو أن المرأة فى الجماعات المختلفـــة كانت تعامل على نســبة مكان تلك الجماعات من سلم المدنية ، ولا سبيل الى تغيير هذه المعاملة ، فان فلسفة محررى المرأة لا تصل الى هذه الجماعات ، ولو وصلت لرموا بها عرض

(*) مجلة الهلال ، يولية ١٩٣٨ ·

الحائط ، فان لكل دور مـــن أدوار الاجتماع مميزات لايمكن أن تتخلف على الاطلاق ٠

والذى يتبين من تاريخ الانسان أنه ما فتىء يزيد من حقوق المرأة عليه كلما ارتقت حالته الأدبية وازداد شعورا بواجباته الاجتماعية ، فنزل عن كثير من مزاعمه حيالها دون أن تطالبه هى بذلك ، محفوزا بمحض العوامل الطبيعية ، مما يشعر بأن العلاقة بين الجنسين لابد منتهية الى درجة من الكمال لا يكون معها محل لشكوى ٠ نعم لم تصل أمة من أمم المعمور بعد الى هذه الدرجة ولكنها منتهية اليها لا محالة ، اذا خلا الجو من المزاعم الطائشة التى يرمى مثيروها من ورائها الى الحصـــول على ما يطلبونه باسم المرأة من طريق الثورة لا من طريق العوامل الطبيعية ٠

ولقد اتفق فى ابان نعرة تحرير المرأة فى أوربا فى القرن التاسع عشر أن نعرات أخرى فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والخلقيـــة والسياسية كانت قائمة ، أثارتها مزاعم اشـــتراكية وفوضـــوية واباحية واصلاحية ، فكان تأثير مجموع هذه النعرات الصاخبة فى ذلك القرن أشد فى زعزعة أركان المبادىء المستقرة فى نفـــوس الناس من تأثير أكـــبر الحوادث الانقلابية ، وأفضى ذلك التأثير الى نتيجة لا مفر منها فى مستهل القرن العشرين ، وهى الحرب العامة التى ظلت الانسانية تتناحر فيها خمس سنين متوالية وكادت تقضى على المدنية وتجعلهاأثرا بعد عين ، لولا ما كتب لها من بقية حياة الى حين ٠ فكان أثر نعرة من هذه النعرات المتطرفة أن ارتكست الأحوال بســـببها الى عكس ما كان يراد منها ٠ فاستحالت فى الناحية الاقتصادية الى انتشار البطالة ، وتوالى الأزمات، وتتابع الاضرابات ، واختلال اتزان الاعمال فى جميع البلدان ٠ وكان أثرها فى الناحية الاجتماعية زعزعة الأصول الديموقراطية ، وقيام حكم الفرد مقام حكم الجماعة ، وضياع أكثر المبادىء العليا التى حصلها الانسان فى خلال العصور باراقة دمه ، وأصبحت الجماعات مضطرة الى اللجأ لحكم القوة ، ففزعت الى التسلح باذلة فى سبيله كل ما تملك من حول وحيـــلة ٠

وكانت ثمرتها من الناحية السياسية سريان سوء الظن بين جمـــع

الأمم ، وتنبه الأحقاد الجنسية وهضم حقوق الأقليات لدرجة حرمانهم من العمل لكسب قوتهم ، حملا لهم على الجلاء من بلاد استوطنوها مئات من السنين ، وعدم المبالاة بالعقود المبرمة ، والعهود المقطوعة ، حتى صرحوا بأنها وقصاصات الأوراق سواء . وابتنى على ذلك كله الجرى على قاعدة الأمر الواقع ، فأصبحت كل أمة قـــوية تبيت لجارتها ما بدا لهـــا من الحوادث،حتى اذا أصبح الناس وجدوا أنفسهم حيال انقلاب كان لا يمكن حدوثه لو كانت النفسية السياسية للقادة فى حالتها التقليدية .

أما من ناحية الآداب العامة فقد كان من نتائجها أن تفككت جميع ربط الاخلاق ، وانحلت عرى حوافظها المعنوية ، فلم يبق لسنتها التقليدية اعتبار فى نظر الخاصة والعامة ، فسمح كل فريق لنفسه أن يعمل ما يبدو له كأنه مستقل برأسه ، وضعف سلطان الرأى العام فلم يعد أحد يعتد به متى تراءت له مصلحة شخصية فى احتقاره .

هذه الكارثة الخلقية حلت بالبيوت فلم يبق لرب الأسرة المنزلة التى كانت له من قبل ، وآنس نفسه بين حليلته وبنيه مجردا من السلطان ، حتى فيما يمس شرفه الشخصى وكرامة البيت . ورأى أنه لو قام مذكرا بأدب موروث ، أو بقاعدة مأثورة ، أو بمأساة منوقعة ، قوبل بعاصفة من الاحتجاج ، وضربت له الأمثال بفلانة وفلان ، واحيط به من كل مكان ، فالفى نفسه بين شرين لا وسط لهما ، فاما أن يعتزل أسرته ويعيش آبدا كأنه بعض الضوارى ، واما أن يجدع انف غيرته فيتغابى ليعيش ، متأسيا بمصائب الكافة بين يديه ومن خلفه .

ألمت هذه الاباحة الجائحة بصناعة القلم ، فاندس فيها من لا حريجة له من كرامة أو ضمير ، فأطلق ليراعته العنان ليرضى هذه النفوس الهائمة فى متاهات الشهوات،ويبل أوام تلك الفطر النزاعة الى الاباحة والاطلاق. وأى شىء يخشى وقد سلب الرأى العام سلطانه فلا يبالى وازعا من ناحيته، ووسم داعى الاعتدال بالرجعية فلا يتوقع كريهة من جهته ، واضطر كثير من حملة اليراع الى الاسفاف ، وما هم بأهله ، ولكن المضطر قد يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه !

فاذا عنى باحث بأن يستطلع آراء زعماء المذاهب المختلفة فيما انتهت اليه الحال فى هذا العهد كثمرة لجهادهم ، لما صادق واحدا منهم راضيا بما آلت اليه الأمور ، بل لصرحوا له بأن نتيجة جهودهم جاءت مباينة لما كانوا يدعون اليه . فلا الاقتصاديون كانوا يرومون من وراء بحوثهم المستفيضة أن تنتهى الحال الى أزمات عملية ومالية منكرة ، ولا الى اختلال توازن المبادلات والمعاوضات الى حد أن أصبحت كل أمة تعمل على ان تقطع صلاتها بجميع العالم ، وتكفى نفسها الحاجة الى سواها فيما جل أو حقر ، ما ستكون نتيجته لا محالة قطع أواصر الأمم ، وفصم عرى الألفة العالمية التى لا موجب لوجودها الا ضرورة تبادل المنافع ، وتدال المرافق .

ولا الاجتماعيون كانوا يرجون باكثارهم من بيان علل الجماعات ، والسعى لزيادة حظها من الحرية ، ونقد اسراف الحكومات فى تجاهل حقوق الأفراد ، أن ينتهوا الى هدم سيادة الأمة ، واحلال الدكتاتورية محلها ، ولا الى اثارة الدهماء الى حد اقامة حكومات شعبية تنعدم فيها الطبقات وتستحيل الى شيوعية باحتة . ولا شيعة الشيوعية أنفسهم كانوا يتطلبون من وراء سيادة مبادىء كارل ماركس أن تفضى الحالة الى ضرب من الحكومة الاستبدادية لايستطيع القائم بها أن يحفظ وجودها الا باحداث مجازر بشرية دورية .

ولا اشياع الاصلاحات الخلقية كانوا ينوخون من تشنيعهم على استبداد الأوضاع العامة ، والتشهير بالعبودية لوثنية العادات والتقاليد الضارة ، أن تؤول الحال بالناس الى نكران جميع الأوضاع والعادات ، والخروج الى باحة الفوضى الخلقية ، كما هو حاصل اليوم .

ولا زعماء النقد الأدبى كانوا يرجون بما نعوا عليه من تحدى الأساليب العتيقة ، والورع المبالغ فيه عن ذكر المساوىء البشرية فى عبارات صريحة ، أن تنتشر الدعارة الكتابية الى حد أن توقف البراعات الفنية على نشر ما يثير الشهوات البهيمية ، ويقضى على عاطفة الصلاح فى النفس البشرية .

ولا الذين كانوا يدعون لتحرير المـــرأة والمطالبة باستقلالها كانوا يرمون أن يقضوا عليها بأن تعيش على هامش الجماعة كما هى اليوم ، خارج دائرة الزوجية ، وأن تقصر على أن تكون أداة شهوانية ، فاذا لم تعد تصلح لذلك نبذت الى عالم الحرمان مع أولادها الطبيعيين ، وأن تستتبع هذه الاباحة انتشار العزوبة ، واقفار البيوت ، وذيوع الأمراض السرية ، وقيام نوادى العرى التى يجتمع فيها الرجال والنساء عرايا على حالة تأباها الكرامة الانسانية .

فلو أراد الباحث المنصف أن يعرف الطائفة التى فازت مما دعت اليه بحظ مرض ، أو اعتبرت ما آلت اليه الأحوال نمشيا نحو تحقيق غرضها ، لما وجدها فى واحدة مما ذكرت وما لم أذكر . بل لرأى رأى العين أنها خسرت جميعا خسارات فادحة فى مبادئها وتعاليمها ، وأصبحت لاتستطيع أن تتابع جهودها ، اللهم الا فى ناحية واحدة وهى الدعوة الى التعقل ، واعادة النظر فيما العالم ماض فيه راكبا رأسه لا يلوى على شىء .

★ ★ ★

الدعوة الى تحرير المرأة فى مصر كانت فرعا من تلك الدعوة نفسها فى أوربا ، وقد أصابها هنا ما أصابها هناك ، اى انها تأدت الى شر محض ، واندفعت فى تيار لا يرجى الخير ممن يندفع فيه . ولو كان المرحـــوم قاسم بك أمين حيا ورأى ما نحن راؤوه اليوم ، لبرىء الى الله منه ، ولأهاب بالناس الى الرعوى عما هم ماضون فيه .

لقد سلخنا فى تحقيق برنامج تحرير المرأة أكثر من ثلاثين سنة فلم يتم منه غير شىء واحد ، وهو سفور القلة المحجبة من ساكنات المدن ، وكانت النتيجة وصولنا الى عكس ما كان ينتظر من ذلك البرنامج . فقد كان ينتظر واضعه منه ارتفاع مستوى الآداب ، ورواج ســـوق الزواج ، وتوافر أسباب السعادة فى البيوت ، ولكن الذى حدث هو تدهور مروع فى الآداب العامة ، وانتشار مفزع لمبدأ العزوبة . وكنا لا نسمع بحدوث طلاق فى الأسر الكبيرة الا فى أحوال شاذة ، فأصبحنا نراه شائعا فى تلك الأسر كأنه امر عادى . واضحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك

الأعراض ، وتعديد بعض النساء للازواج • وصار من الأمور المألوفة هروب الشابات من دور أهليهن ، وقضاء الأيام والأسابيع مع بعض الشبان ، واختتام هذه الفصول بعقد قرانهن فى مكاتب البوليس ، ولا تسل عما تؤول حالتهن اليه بعد تلك المأساة المنكرة من السيرة المعوجة ، والحياة الدنســـة •

لقد طمت هذه الأحوال وتفاقمت شرورها وهى آخذة فى الازدياد ، وقد أصبحت جزءا من التدهور الأدبى العام الدى أصاب الانسانية فى هذا العهد الأخير • فاذا اعتبرها الاجتماعيون من العلامات المنذرة بقرب انهيار صرح المدنية الراهنة ، فلم يعد الصواب ، لأنه لا يعقل أن تنقلب الحياة الانسانية الكريمة ، وهى مستقر الصفات الملكية ، وعوامل السمو الذى لا حد له ، الى مثل هذا الحضيض من الدنيس والاسفاف والبهيمية •

على بـــاب الرجـــــاء

الدكتور سـيد أحمد عثمان

كنا جلوسا نشاهد صورة حية للشيشانى المجاهد المسلم وهو يضع سلاحه ليقيم صلاة الجماعة على مهاد منور بالجليـــد ٠ متنقلا بهذا من عبادة الى عبادة ، بل متزودا من عبادة الصلاة بزاد من صادق العبودية، وخالص التقوى ، رفيع الاحسان ؛ فيرتفع درجة فوق درجة فى جهاده الاسلامى الموصول من لدن أجداده القدامى فى جبال القوقاز ضد العدو ذاته المتربص من قديم ، بالاسلام هناك ، وان له فى الحاضر لأشـباها فى كل ركن من أركان الدنيا ، ونظائر فى كل مسعى من مساعى الحياة٠ مال صاحبى الى يحدثنى هامسا كأنما يحدث نفسه ، أو كأنما يحدثنى بحديث هو على يقين من أننى محدث نفسى بمثله ، حدثنى قائلا :

« ألست ترى أن حكمة الله سبحانه قضت أن الاسلام لا يزكو ولايمتد الا من جهتى التحدى والابتلاء ٠ والاسلام منذ يوم بلاغه الأول الى يوم الناس هذا ، يوشك أن يكون ابن التحدى ربيب الابتلاء ؟ ويكاد يسـتقر قانون من قوانين التاريخ الاسلامى ، أن التحـــدى ، واشتداد الابتلاء، يؤذنان ببعث للاسلام جديد ، يمتد فيه اتساعا بين البشر كافة ، ويتأصل فيه عمقا فى ضمير الانسان » ٠

فقلت : « بلى ٠٠٠ حقا الاسلام ابن التحـــدى ، ربيب الابتلاء ، وأضيف ياصاحبى ان الاسلام ، قبل هذا وبعده ، رفيق الرجاء ٠ انه دين قلبه رجائى ، قلبه مصاغ من ضياء الرجاء ٠ فلولم يكن الرجاء حيـا فى قلب ذلك المجاهد الشيشانى المسلم ، ما كان التحدى ليقويه ، بل يرديه، ولولم يكن الرجاء فى لب ارادته ، ما كان ليشتد بالابتلاء ، بل ينهد ، ولو لم يكن الاسلام دينا رجائيا ، ما كان أجداد هذا الشيشانى المسلمون ليحملوا اسلامهم من قلب الصحراء ، من واد غير ذى زرع ، الى هـذا الجبل العاتى الذى تقع الشيشان عند أطرافه البعيدة ٠ نعم ، لو لم يكن قلب ذلك العربى المسلم عامرا بالرجاء الحى ، ما كانت لتحمله ارادته ،

وترفعه همته ليبلغ رسالة الاسلام الى ساكن ذلك الجبل الأبى فى شموخه ، العصى فى وعورته ، القصى فى مداه . الرجاء الذى حمل المسلم الأول ، وحمله المسلم الأول الى الشيشان وما جاورها ، انتقل راسخا ثابتا ، بل رابيا متفتحا ، الى المسلم المعاصر هناك ، والا لما وقف هذه الوقفة الجسور ، التى أذهلت الدنيا ، والغرب بخاصة ، من تلك الارادة التى تفوق كل تصور لديهم محدود ، والهمة التى تتجاوز كل تقدير لديهم محسوب . وذهبوا يدرسون ويحللون ، بقدر ما أوتوا من العلم والمنهج والأداة ، ولكنهم لم يصلوا الى صحيح من التفسير ، ولا سديد من الرأى ، وما كانوا منصفين . فهل ندرس نحن ونحلل ، ونكون عندئذ من المنصفين ؟ واننى مخاطب عشيرتى الأقربين من النفسانيين العرب المسلمين : أن أولو جانب الرجاء فى قلب الاسلام اهتمامكم ، الرجاء من حيث هو مصدر ارادة ، ومنبع همة ، وموجه طاقة ، ومولد حكمة ، الرجاء من حيث هو ثقة متعددة الأبعاد ، ووعى متفاوت المستويات ، **وعمل** متباين الدرجات(*) . ألم يئن لنا ، نحن النفسانيين العرب المسلمين ، أن ندخل الرجاء فى دائرة ما ندرس من ظواهر نفسية لها دورها فى حياة المسلم ، غردا كان أم جماعة ؟

وهنا قال صاحبى ، غير هامس هذه المرة : « أراك قد استرسلت ، وذهبت بعيدا فى توقعك واهتمامك ، وأراك انتقلت من الشيشانى المسلم الى النفسانى المسلم » .

قلت : « انه قريب من قريب ، ذلك مجاهد بسلاحه ، ألا نجاهد مثله بعلمنا ؟ ألا نطرق باب الرجاء علميا ، عسى أن يفتح الله علينا بادراك أرشد ، وبصر أعمق ، وفهم أوسع للرجاء ودوره . اننى أطرق بابك أيها النفسانى المسلم داعيا اياك أن تطرق باب الرجاء ، واننى لعلى يقين من أنك سوف تؤوب ، ان شاء الله بزاد من الفهم والعلم تحمد الله عليه ، ويشكرك قومك الراجون ، والمترقبون للنافع من العلم يجريه

(*) راجع ، ان شئت ، عن الرجاء ، سيد أحمد عثمان : التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى ، القاهرة : الأنجلو المصرية ١٤٠٩هـ(١٩٨٩م) - صص ١٠ - ٤٦.

الله سبحانه وتعالى على يديك ، فترجو عنده ثوابه ، وترجو أن ترى في واقع الحياة آثاره وثماره » .

« ... ان ربى لطيف لما يشـــاء انه هــو العــليم الحــكيم » (يوسف : ١٠٠) .